الاحتِفالُ بمُرور 1700 عامًا على انعِقاد مجمع "نِيقيَا" المسكونيّ:
بضعةُ اعتباراتٍ حول الإيمان باللّوغُس المُتجسِّد والمُتأنِّس

الأب ماوْريتسِيو غُرونْكِي[1]

د. أشرف ناجح إبراهيم عبد الملاك[2]

مُقدّمةٌ

مِن المعروف للجميع أنّه في هذا العام الجاري تمرّ الذّكرى الـ1700 على انعِقاد **مجمع "نِيقيَا" المسكونيّ** (325-2025م)، الّذي شَرَعَ في صياغة ما يُطلَق عليه "قانون الإيمان النِّيقاويّ"؛ وهو بدوره يقبل ويعترف بألوهيّة الرّبّ يسوع المسيح الكاملة والتّامّة، المتحدّة بإنْسانيّته الكاملة والتّامّة. وترمي هذه المقالةُ إلى تقديم –بإيجازٍ شديد– **بضعة اعتباراتٍ تاريخيّة–خريسْتولوجيّة–ثالوثيّة، مسكونيّة، رعويّة، عمليّة،** حول الإيمان النِّيقاويّ–القسطنطينيّ باللّوغُس المتجسِّد والمتأنِّس. وبكلماتٍ أُخرى، تسعى المقالةُ إلى إلقاء الضّوء على مجمعَي "نِيقيَا" و"القسطنطينيّة" المسكونيَّيْن؛ ومِن ثَمَّ، إلى إعادة تشييد بعض المراحل أو الحلقات الّتي سبقت ولحقت مجمع نِيقيَا، وإلى عرض مضمونه الخريسْتولوجيّ–الثّالوثيّ. وعبر هذه المسيرة الموجزة، نهدف إلى إعادة اكتشاف جوهر إيماننا المسيحيّ، حتّى ندرك معًا أنّ ما يوحِّدنا نحن المسيحيّين –على تنوُّع عائلاتنا ومذاهبنا وطوائفنا– هو أكبر بكثيرٍ ممّا يفرِّقنا، أي الإيمان بالله الأحد–الواحد–الثّالوث، وبالأُقنوم الثّاني من الثّالوث القُدوس، اللّوغُس المتجسِّد، يَسُوع المسيح، ابن الله المخلِّص، وبالرُّوح القُدس الرّبّ المحْيي. وبعرضنا للمراحل السّابقة واللّاحقة لمجمع نِيقيَا، لا ننوي تقديم أركيولوجيا تاريخيّة فحسب، وإنَّما نريد إيضاح –بشكلٍ وجيزٍ– الحيويّة الدّائمة المتعلّقة بالتّساؤل والبحث عن أجوبة بشأن **المعاصرة المستمرّة لسِرّ المسيح؛** فهو سِرٌّ قد قُبِل، وحُفِظ عليه، ونُقِل، داخل إطار مجرى النّهر الكنسيّ.

وانطلاقًا ممّا قِيل للتّوّ، قد قسّمنا هذه المقالة إلى المحاور التّالية: **1**) الاحتفال بمرور 1700 عامًا على انعِقاد مجمع نِيقيَا المسكونيّ؛ **2**) مِن العهد الجديد إلى آباء الكنيسة الأوائل؛ **3**) فِكرُ أريوس وعقيدةُ مجمع نِيقيَا؛ **4**) أبوليناريوس اللّاذِقيّ وقضيّة نَفْسِ المسيح؛ **5**) اعتبارات خريسْتولوجيّة–ثالوثيّة، مسكونيّة، رعويّة، عمليّة، حول الإيمان النِّيقاويّ–القسطنطينيّ باللّوغُس المتجسِّد والمتأنِّس.

أوّلًا: الاحتفالُ بمرور 1700 عامًا على انعِقاد مجمع نِيقيَا المسكونيّ

[1] وُلِد البروفيسور ماوْريتسِيو غُرونْكِي في عام 1959 بمدينة "بيزا" الإيطاليّة. وهو عَالِم لاهوت معاصر، وبروفيسور الخِريسْتولوجيا بالجامعة الحَبريّة "الأُوربانيانا"، ومُستشار في "مجمع عقيدة الإيمان" أيضًا.

[2] مصريّ–قبطيّ كاثوليكيّ، عَلمانيّ، حاصلٌ على درجة الدّكتوراة في عِلْم اللّاهوت العقائديّ (تخصُّص "خِريسْتولوجيا")، مِن الجامعة الحَبريّة "الأُوربانيانا" بروما؛ وأستاذ "عِلْم اللّاهوت التّنظيميّ" في "الجامعة الأَوْغُسطينيّة" وجامعات أُخرى بالعاصمة الكولومبيّة "بوغوتا".

لا يقوم الإيمانُ المسيحيّ على مجرّد فكرةٍ أو نظريّةٍ ما، وإنّما على **شخص يَسُوع النَّاصريّ**، وعلى ميلاده، وحياته، وعلاقاته، وأقواله، وأعماله، ومَوْته، وقيامته. أجل، فكما أوضح البابا بِنِديكْتُس السَّادس عشر[3]، في رسالته العامّة **"الله محبّة"** (عام 2005م)، «هذه الكلمات الواردة في **رسالة القدّيس يوحنّا الأولى** [1يو 4: 16] تعبّر بكلّ وضوح عن محور الإيمان المسيحيّ: كيف تتصوّر المسيحيّةُ الله، وبالتالي كيف ترى الإنسانَ ومسيرتَه التي تنجم عن ذلك التصوّر [...] **لقد آمنّا بمحبّة الله**: بذلك يستطيع المسيحيُّ أن يعبّر عن اختيار حياته الأساسيّ. في أصل واقع الكيان المسيحيّ لا يوجد قرارٌ أخلاقيٌّ أو فكرة عظيمة، بل اللقاءُ مع حدَث، مع شخص، يُعطي الحياةَ أفقًا جديدًا وبالتالي توجّهًا حاسمًا» (بند 1)[4]. ولذا، فقد أصاب الفيلسوفُ وعَالِم اللّاهوت "بسكال" أيضًا عندما قال: «ليس فقط لا نعرف الله إلّا بيسوع المسيح، وإنَّما أيضًا لا نتعرّف على أنفسنا ذاتها إلّا بيسوع المسيح. ولا نعرف الحياة ولا المَوْت إلّا بيسوع المسيح. فخارج يسوع المسيح، لا نعرف ما هي حياتنا، ولا ما هو مَوْتنا، ولا الله، ولا أنفسنا ذاتها. وهكذا، من دون الكِتاب المقدَّس، الّذي ليس له غرضٌ سوى يسوع المسيح، لا نعرف شيئًا البتّة، ولا نرى شيئًا سوى الظّلام والالتباس في طبيعة الله وطبيعتنا»[5].

ومِن ثَمَّ، يتمتّع يَسُوعُ النّاصريّ، المسيح ابن الله المخلِّص، بمركزيّة صريحة في الإيمان المسيحيّ؛ فهو –نظريًّا وعمليًّا– محورُ كلّ ما هو مسيحيّ. فيشكّل حَدَثُ "يَسُوع المسيح" عَيْنه، مدخلًا غير مسبوقٍ إلى الله في التّاريخ؛ وقد أحدث تحوُّلًا جذريًّا في الحياة والفكر البشريَّيْن. وانطلاقًا من هذه المركزيّة الخريسْتولوجيّة، وفي إطار مبادرات كنسيّة وحَبريّة ومسكونيّة أُخرى، أعلن مثلّثُ الطّوبى البابا فرنسيس (1936–2025م) **عامَ 2025 يُوبِيلًا عاديًّا** ("يُوبِيل الرَّجَاء")، الّذي يحلّ كلّ خمس وعشرين سنة بإعلانٍ من بابا الكَنيسة الكاثوليكيّة، طِبْقًا للتّقليد القديم؛ وكذلك أيضًا لمرور 1700 عامًا على انعِقاد مجمع نِيقيَا المسكونيّ، الّذي رَفَضَ التّعاليم الأريوسيّة (نسبةً للكاهن السّكندريّ "أريوس")[6]؛ وقد أكّد هذا المجمعُ على ألوهيّة الرّبّ يسوع الكاملة والتّامّة:

«كانت مهمّة مجمع نيقيَة الحفاظ على الوَحدة، الّتي كانت مهدّدة بشكل خطير بسبب إنكار ألوهيّة يسوع المسيح ومساواته مع الآب. حَضَرَ حوالي ثلاثمائة أسقُف، اجتمعوا في القصر الإمبراطوريّ بدعوة من الإمبراطور قسطنطين في 20 أيّار/مايو 325. بعد مناقشات عديدة، اعترف الجميع، وبنعمة الرّوح القدس، بقانون الإيمان الّذي مازلنا نعترف به حتّى اليوم في الاحتفال الإفخارستيّ يوم الأحد. أراد آباء المجمع أن يبدأوا هذا القانون باستخدام عبارة "نؤمن" لأوّل مرّة، ليشهدوا على أنّ في تعبير "نحن" كلّ الكنائس كانت تجد نفسها في شركة، وكلّ المسيحيّين كانوا يعترفون بالإيمان نفسه. مجمع نيقيَة هو مرحلة مهمّة في تاريخ الكنيسة. تذكاره يدعو المسيحيّين إلى أن يتّحدوا في التّسبيح والشّكر للثّالوث الأقدس، وخاصّة ليسوع المسيح،

---

[3] لمعرفة المزيد عن سِيرَة حياته، ورحلاته الرّسوليّة، وتعاليمه الحبريّة، ومؤلّفاته الكاملة، ونياحته، ونَصّ وصيّته الرّوحيّة، راجع: أشرف ناجح إبراهيم عبد الملاك (دكتور)، «البابا راتسينغر–بِنِديكْتُس السَّادس عشر: بِيوغْرَافيا مُوجَزة»، مجلّة "نور على الطريق"، العدد الأوّل لعام 2024 (رقم 145/ 750)، ص 1–23.

[4] بِنِدِكْتوس السَّادس عشر (الحَبر الأعظم)، الرّسالة العامّة "اللهُ محبّة"، منشورات اللّجنة الأسقفيّة لوسائل الإعلام، جل الدّيب – لبنان، 2005، بند 1، ص 3.

[5] B. PASCAL, *Pensamientos*, (Los grandes pensadores, 44), SARPE, Madrid 1984, n. 728, 253.

[6] فيما يتعلّق بـ"يُوبِيل الرَّجاء" (عام 2025م)، وقضيّة الرَّجاء المسيحيّ (وجوديًّا وفلسفيًّا وكِتابيًّا)، وعن كوننا "حُجّاجَ رجاءٍ" أو "حُجّاجَ الرَّجَاءِ"، راجع: أشرف ناجح إبراهيم عبد الملاك (دكتور)، «حُجّاجُ الرَّجَاءِ في يُوبِيل الرَّجَاء»، مجلّة "النّسُور"، العدد رقم (14) شتاء 2025، ص 169–179.

ابن الله، "مُساوٍ للآبِ في الجَوهَرِ"، الّذي كشف لنا سرّ المحبّة هذا. مجمع نيقيَة هو أيضًا دعوة لجميع الكنائس والجماعات الكنسيّة لكي تتقدّم في مسيرتها نحو الوَحدة المنظورة، ولا تتعب من البحث عن طرق مناسبة تتّفق اتّفاقًا تامًّا مع صلاة يسوع: "فَلْيكونوا بِأَجمَعِهم واحِدًا: كَما أَنَّكَ فِيَّ، يا أَبَتِ، وأَنا فيك، فَلْيكونوا هُم أَيضًا فينا، لِيُؤمِنَ العالَمُ بِأَنَّكَ أَنتَ أَرسَلتَني" (يوحنّا 17: 21)»[7].

إنَّ مجمع نِيقيَا، ومعه مجمع القسطنطينيّة والمجامع المسكونيّة الأُخرى، مرحلةٌ مهمّةٌ في تاريخ الكنيسة، وفي تاريخ عِلْم اللّاهوت عامةً، وتاريخ الخريسْتولوجيا خاصةً؛ إذ إنّه قد شَرَعَ في صياغة وبلورة اعتراف الإيمان المسيحيّ المعروف **بـ"الإيمان النِّيقاويّ"** (نسبةً إلى "نِيقيَا")، **و"الإيمان النِّيقاويّ–القسطنطينيّ"** (نسبةً إلى "نِيقيَا" و"القسطنطينيّة"). فضلًا على ذلك، يُعَدّ هذا الاعتراف الإيمانيّ "بِطاقَةً شخصيّةً" لكلّ مسيحيّ ومسيحيّة، والوثيقةَ الأكثر أهمّيّة بعد الكِتاب المقدَّس على **الصّعيد المسكونيّ**. وهذا هو بالتّحديد ما حاولت إيضاحه "اللّجنةُ الثّيولوجيّة العالميّة" (التّابعة لدائرة "عقيدة الإيمان" الكاثوليكيّة) بإصدارها هذا العام الجاري وثيقة جديدة، بعنوان **"يَسُوع المسيح، ابن الله، المخلِّص"**، بمناسبة الذّكرى الـ1700 لانعِقاد مجمع نِيقيَا المسكونيّ. وجديرٌ بالذّكر أنّها الوثيقة الثّيولوجيّة الـ31 ضِمْن الوثائق الّتي صدرت عن هذه "اللّجنة" منذ تأسيسها (عام 1969م).

إضافةً إلى مقدّمةٍ وخاتمةٍ، تحتوي الوثيقة على فصول أربعة: 1) قانون إيمانٍ لأجل الخلاص (ذكصولوجيا وثيولوجيا مجمع نِيقيَا)؛ 2) قانون الإيمان النِّيقاويّ في حياة المؤمنين ("نحن نؤمن كما نعمّد؛ ونصلّي كما نؤمن")؛ 3) نِيقيَا كحَدَثٍ ثيولوجيّ وكحَدَثٍ كنسيّ؛ 4) إبقاءُ الإيمان في متناول شعب الله برُمّته. وفي الفصل الأوّل، تعرض الوثيقةُ قراءةً ذكصولوجيّة متعلّقة بقانون الإيمان النِّيقاويّ، لتحديد الثَّراء الخلاصيّ الكامن فيه؛ وبالتّالي، الخريسْتولوجيّ والثّالوثيّ والأنثروبولوجيّ. وتسلّط الوثيقةُ الضّوءَ على أبعاد مجمع نِيقيَا، وتدفع نحو الوَحدة المنشُودة بين المسيحيّين. ويحمل هذا الفصلُ أيضًا إلى إدراك كيف يُغذّي مجمعُ نِيقيَا الحياةَ المسيحيّة اليوميّة، ويوجّهها. وفي الفصل الثّاني، ومن خلال التّركيز أكثر على فِكرِ آباء الكنيسة، تكشف الوثيقةُ عن كيف أصبحت الحياة اللّيتورجيّة وحياة الصّلاة في الكنيسة بفضل تأثيرِ انعِقاد مجمع نِيقيَا. وأمَّا في الفصل الثّالث، وانطلاقًا من كون مجمع نِيقيَا نُقطةً محوريّة ومرجعيّة لتاريخ المسيحيّة برُمّته، تركّز الوثيقةُ على الطّريقة الّتي يشهد بها قانونُ الإيمان النِّيقاويّ والاحتفالُ بالمجمع عن حَدَثِ يَسُوع المسيح عَيْنه، الّذي يشكّل ظهورُه في التّاريخ مدخلًا غير مسبوقٍ إلى الله، ويُحدِث تحوُّلًا في الفِكر البشريّ. إنَّ قانونَ الإيمان النِّيقاويّ والمجمعَ هما أيضًا شهادةٌ على الطّريقة الجديدة الّتي بها تُشكَّل وتتبلور كنيسةُ المسيح، وتُحقِّق رسالتها. وأخيرًا، في الفصل الرّابع، تحلّل الوثيقةُ شروط مِصداقيّة الإيمان المعترَف به في مجمع نِيقيَا من خلال مُقاربةٍ من جِهةِ الثّيولوجيا الأساسيّة، لعرض طبيعة وهويّة الكنيسة كمفسِّرة أصيلة للحقيقة المعياريّة للإيمان عبر التّعليم الرّسميّ للكنيسة، الّذي هو بمثابة حارسٍ للمؤمنين، ولا سيّما الصّغار والأكثر عُرْضةً للخطر[8].

---

[7] فرنسيس (أسقف روما)، "الرَّجاء لا يُخَيِّب" مرسوم الدّعوة إلى اليُوبِيل العاديّ لسنة 2025 (9 مايو/أيّار 2024)، بند 17.
https://www.vatican.va/content/francesco/ar/bulls/documents/20240509_spes-non-confundit_bolla-giubileo2025.html

[8] Cf. https://www.vatican.va/roman_curia/congregations/cfaith/cti_documents/rc_cti_doc_20250403_1700-nicea_it.html

ثانيًا: مِن العهد الجديد إلى آباء الكنيسة الأوائل

إنَّ مسيرة التّعمُّق في سِرّ الرّبّ يسوع لم تنتظر كثيرًا مِن الوقت، فهي قد بدأت بالتّحديد مع العهد الجديد عَيْنه، وبداخله. فتشهد **الأناجيلُ الأربعة** ذاتها، الّتي كُوِّنت طيلة القرن الأوّل الميلاديّ بعد مرحلة التّقليد الشّفهيّ المتواصل والمتنوّع، على توجُّهات وميول المؤمنين القابعين في أُطرٍ ثقافيّة مختلفة (اليهوديّ–الفلسطينيّ، واليهوديّ–الهلّينستيّ، والوثنيّ). وعلى صعيدٍ آخر، وبطريقةٍ أكثر وضوحًا، يمكن ملاحظة اهتمام الرّسول بُولُس بالجماعات الّتي بَعَثَ إليها رسائله؛ فهذه الرّسائل، على غرار باقي كِتابات العهد الجديد، قد نبعت مِن بعض احتياجات الكنائس الخاصّة في ذلك الحين. فنرى أنَّه بينما كانت ذكرى حَدَثِ الرّبّ يسوع تنتشر، كانت هذه الذّكرى تتشكّل في الوقت عَيْنه بألوان جديدة، تَبَعًا لمسيرة التّبشير، وقبول الإنجيل مِن قِبَل الأشخاص.

أمَّا فيما يخصّ العَلاقة القائمة بين يسوع المسيح والله، فيضع العهدُ الجديد الأُسُس لما سيُطلَق عليه فيما بَعدُ **العَلاقة "الازدواجيّة" (أو "الثُّنائيّة")**، أي الاعتراف بيسوع على أنَّه الله في إطار اختلافه البَنويّ. فنحن هنا أمام **المسيرة الدّقيقة للغاية المتعلّقة بإدراج يسوع في الحَيِّز الإلهيّ**، وهو ما حَدَثَ بفضل "التّعبُّد" المتَزايِد والتّدريجيّ للابن مِن حيث إنَّه مشاركٌ لكينونة الله ذاتها (1كورنثوس 12: 3؛ 16: 22؛ رومية 10: 9–13). ففي نطاق الرّؤية اليهوديّة المنظَّمة والمفصَّلة، الّتي هي أمينةٌ أساسًا لمنظور التّوحيد المطلق والضّيق والحصريّ، قد أَدرَجت بشارةُ العهد الجديد الخريسْتولوجيّة، منذ بدايتها، الابنَ داخل هُويّة أو كينونة أو ماهيّة الله الواحدة، إذ إنَّه مشاركٌ لله في عمليّة الخلق والسّيادة الإلهيّة على كلّ شيء (فيلبي 2: 6–11؛ كولوسي 1: 15–20؛ يوحنا 1: 1–18؛ أفسس 5: 14؛ 1تيموثاوس 3: 16). وبهذه الطّريقة أُعِيدت صياغة وبلورة **التّوحيد اليهوديّ** ليصبح **توحيدًا خريسْتولوجيًّا**.

لقد بلغت **المسيحيّةُ المتهوّدة**، الّتي اتّسمت بشكلٍ قطعيّ بالخصائص الأبوكَليبتيَّة–الرُّؤيَويَّة عند قراءة مُعطيات الوَحْي، وركّزت بنوعٍ خاصّ على فكرة الارتفاع (مِن خلال **الخريسْتولوجيا الإبْيونيَّة**)، إلى أقصى حدٍّ في الهَرطقة لدرجة الوصول إلى بدعة "**التَّبَنِّيّ**" أو "**التَّبَنِّيَّة**"، رافضةً ألوهيّة يسوع المسيح، معتبرةً إيّاه مجرّد إنسانٍ تلبسه القوّةُ الإلهيّة، وليس ابن الله الأزليّ.

وعلى الأرضيّة الخاصّة بالأصل السّاميّ–اليهوديّ للمسيحيّة، قد نشأت أيضًا المحاولاتُ الأُولى المتعلّقة بالفَهْم الخريسْتولوجيّ والتّعمُّق غير التّنظيميّ، لا سيّما مِن قِبل إغناطيوس الأنطاكيّ، وبوليكَارپُس الإزميريّ، ومَن يُطلَق عليهم لقب **"الآباء المدافعين"**، مِثل يوسْتينُس، وإيرينيؤس اللّيونيّ. فنجد في رسائل القدّيس إغناطيوس († في عام 107م تقريبًا)، فضلًا على دفاعه المسْتَمِيت عن بشريّة يسوع الحقيقيّة ضدّ هَرطقة **"الدُّوسيتيَّة"** أو **"الظَّاهِريَّة"** (مِن الفعل اليونانيّ الّذي يعني يَظهَر أو يبدو)، الاستعمالَ البدائيّ لما سيُعرَف فيما بَعدُ باسم "**تبادل الخَصائص**" أو "**المشاركة في الخَواصّ**". وأمَّا الإسهام المهمّ ليوسْتينُس الفيلسوف والشّهيد، الّذي عاش ما بين 100م تقريبًا إلى 168/162م، فقد تعلّق بإقامة أَوَاصِر مباشرة بين المسيحيّة والأفلاطونيّة الوسيطة، ممّا فتح الطّريق أمام فَهْم المسيح فَهْمًا شُموليًّا، مِن خلال عقد المقارنة والموازاة والمفارقة بين بحثِ

الفلاسفة اليونانيّين عن الحقيقة، وانتظار أنبياء العهد القديم للمِسيّا. وتميّز إسهامُ إيرينيؤس اللِّيونيّ، الّذي عاش ما بين 130م تقريبًا إلى 202م تقريبًا، بالدّفاع عن **"قاعدة الإيمان"**، وبالمضي قُدمًا في تعميق الإيمان أيضًا؛ فهو قد نَقَلَ لنا، عبر مُؤلَّفه المعرف "ضدّ الهَرطقات" أو "الرَّدّ على الهَرطقات"، خارطةً نفيسةً للتّيّارات الهَرطُوقيّة في عصره، إذ قد فُقِدت أغلبيّة النّصوص المكتوبة المتعلّقة بهذه التّيّارات.

وقد عُبِر مِن القرن الثّاني إلى القرن الثّالث الميلاديَّيْن، قبل كلّ شيء، مِن خلال بعض الإشكاليّات البدائيّة المتأصّلة في الخلفيّة اليهوديّة والهِلّينستيَّة، ومِن ثَمَّ، تكوّنت **الانحرافات الخريسْتولوجيّة الأُولى**. فقد كان الانشغالُ بقضيّة التّوحيد، وهو الأمر القائم على الخلفيّة السّاميّة–اليهوديّة، يشدّد على تَفْسير حَدَثِ يسوع داخل إطار النَّسق الفكريّ اليهوديّ، عبر حلّ **"المُونارْخِيانيّا"** ("وَحدانيّة المبدأ" أو "المبدأ الوَاحد"). فتَبَعًا لهذا الحلّ، يُعَدُّ تجسُّدُ ابن الله **مجرّد "شكلٍ"** تعبيريّ أو **"حالةٍ"** تعبيريّة للإله الواحد (هَرطقة **الشَّكلانيّة، الشَّكليّة، الأحواليّة، الحالانيّة، الوجوهيّة**)، حيث إنَّ هذا الإله الواحد يظلّ هو المبدأ الواحد والوحيد؛ وهو، في الواقع، وَضَعَ طاقتَه الإلهيّة في مجرّد إنسانٍ خالصٍ (هَرطقة **"الدّينياميّة"**). ووَفقًا لهذا النّوع مِن التّفكير، قد تألّمَ الآبُ، وليس الابن، فوق الصّليب، ومِن هنا جاء تعبيرُ "الآب هو الّذي تألّمَ"؛ وهو ما نتجت عنه هَرطقةُ **"الباتريباسّيانيّة"** أو **"الآبيَّة"**. ويمكن تصنيف كُتَّابٍ مثل بَرَكْسِياس، ونُواطُس الإزميريّ، وسابِليوس، في إطار هذه البدع والهَرطقات.

وإذا كان بعضُهم قد حاول، مِن خلال هَرطقة **الشَّكلانيّة المُونارْخِيانيّة**، الدّفاعَ عن مبدأ الوَحدة الإلهيّة العُلويّة، فإنَّ بعضَهم الآخر، مِن خلال هَرطقة **التَّبَنِّيَّة**، الّتي نادى بها بُولُس الشُّمَيشاطيّ الّذي حُرِم مِن قِبل سينودُسات أنطاكيا في عامي 264 و268م، ركّز على السّلوك الأخلاقيّ ليسوع، معتبرين إياه مجرّد إنسانٍ بسيطٍ، قد كَافَأه اللهُ لسلوكه الحسن، وتبنّاه كابن.

كانت الإشكاليّاتُ على قدرٍ كبيرٍ مِن الأهمّيّة القصوى، ليس فيما يخصّ تَفْسير ألوهيّة يسوع فحسب، وإنَّما فيما يتعلّق بتَفْسير بشريّته أو بإنْسانيّته أيضًا، أي إنْ لم يكن يسوعُ أزليًّا مثل الله، وصار ابنَ الله بفضل الله، فالتّساؤل المطروح هو التّالي: أيُّ نوعٍ مِن البشر يكون، إذًا، ذاك الّذي يأتي مِن الله وإليه يعود، ولكنَّه في الوقت عَيْنه ليس مُعادلًا له؟ لقد شكّلت هَرطقة **"الدُّوسيتيَّة"** أو **"الظَّاهِريَّة"** حلًّا غير ملائمٍ لهذا التّساؤل. فقد نادت هذه الهَرطقة بأنَّ جسد المسيح لم يكن حقيقيًّا، وإنَّما مجرّد وَهْمٍ وخيال، فهذا الجسد أَظهَر المسيحَ على أنَّه إنسان، ولكنَّه كان، في واقع الأمر، لابسًا لِباس إنسانٍ فقط (الهَرطُوقيّ مَرقِيون). وقد اتَّخذ **التّصوُّرُ الغُنوصِيّ** أيضًا شكلًا منظّمًا، فنجد الخريسْتولوجيا الخاصّة به في تعاليم **"الأُوفيتيسيّين"** (أي أَتْباع الحيّة المذكورة في سِفر التّكوين)، **والفالَنْتينُسيّين** (أي أَتْباع فالَنْتينُس الغُنوصِيّ)، **والباسِيليديّين** (أي أَتْباع باسِيليديس الغُنوصِيّ).

فماذا كان **ردُّ الكنيسة الكُبرى**، يا تُرى، على كلّ هذه المحاولات الواهمة والخياليّة لتَفْسير شخص يسوع المسيح؟ بالطّبع، كان عليها إيجادُ مُفردات ومصطلحات ومفاهيم ملائمة للسّياق الثّقافيّ الجديد الّذي انتشرت فيه المسيحيّة. ففي بَدْء الأمر، قدّم بعضُ المؤلِّفين الكنسيّين، مِثل إبّوليتوس وترْتُلّيانُس، إجابات مهمّة على هذه المعضلات الصّعبة؛ فمِن بين أمورٍ عديدة، استخدم هذان المؤلِّفان لأوَّل مرّة، وبطريقةٍ بدائيّة، لفظةَ **"أُقنوم"** أو **"شخص"**، سواء للحديث عن الثّالوث (كما فَعَلَ إبّوليتوس الّذي كَتَبَ باليونانيّة)، أو للحديث عن اللّوغُس الّذي صار إنسانًا (كما فَعَلَ ترْتُلّيانُس الّذي كَتَبَ باللّاتينيّة). وقام هذان

المؤلِّفان، عبر كِتاباتهما، بصياغة رؤية متميّزة –كلٌّ منهما بحَسب وِجهة نظره الخاصّة– حول "**الوِلادَتَيْن**" الخاصّتَيْن باللّوغُس: الوِلادَة الأزليّة والوِلادَة الزّمنيّة. وفضلًا عن هذه الإسهامات الأوَّليّة والأساسيّة، الّتي وُجِّهت ضدّ البدع والهَرطقات، تَطَوّرَ الفكرُ الخريسْتولوجيّ ذو الطّابع الهلّينستيّ في المركز الثّقافيّ الّذي عُرِف **بالدّيداسكاليون** أو **الدّسكوليون** في مدينة الإسكندريّة بمِصْر بنوعٍ خاصّ، ما بين القرنَيْن الثّاني والثّالث الميلاديَّيْن، وهذا بفضل مجهودات إكْليمنضُس وأوريجينُس.

لقد تمحورت اهتمامات **إكْليمنضُس الإسكندريّ** (150–215م تقريبًا) حول العَلاقة القائمة بين الثّقافة الفلسفيّة اليونانيّة والإيمان المسيحيّ، وقد دفعه هذا إلى مواصلة الخطّ الفكريّ الّذي تتبّعه مِن قَبله يوسْتينُس، أي اعتبار اللّوغُس بمثابة الخيط المحوريّ الموحِّد للمشروع الإلهيّ. فعَرَضَ إكْليمنضُس، في مؤلَّفه "**المُربّي**"، المهمّةَ الشُّموليّة الخاصّة بالمسيح–اللّوغُس، الّذي يقود البشريّة بأسرها، ويقوم بالإصلاح والتّشجيع الضّروريَّيْن، على غرار ما يفعله الأبُ تجاه أبنائه. فيرشد المسيحُ–اللّوغُس، وينصح، ويعزّي؛ ومِن حيث كونه «مُحبًّا للبشر في كلّ شيء، هو على أتمّ استعدادٍ لاقتيادهم نحو الكمال عبر مسيرة الخلاص»[9].

كان **أوريجينُس** (185م تقريبًا–253م تقريبًا)، تلميذُ إكْليمنضُس، أوَّلَ ثِيولوجيّ تنظيميّ شرقيّ عظيم، فهو انكبّ على دراسة تَفْسير الكِتاب المقدَّس، والميتافيزيقا، والتّعليم الرّوحيّ. وأمَّا فيما يتعلّق بمنظوره الخريسْتولوجيّ، فمَيَّز أوريجينُس بين مستوى اللّوغُس الأزليّ الّذي شكّل العالمَ العقلانيّ في الخلق الأوّل، وبين مستوى التّاريخ والكون المحسوس، حيث فيه حَقَّقَ ابنُ الله المتجسِّد الخلاصَ للخلائق جمعاء. ويُعَدُّ أمرُ اعتبار "**نَفْسِ**" المسيح البشريّة ("سابقة الوجود") كوَسَاطةٍ واقعيّة وفعليّة بين اللّوغُس الإلهيّ والجسد المأخوذ بالتّجسُّد[10]، بمثابة إسهامٍ مهمٍّ قد قدّمه أوريجينُس للخريسْتولوجيا.

ثالثًا: فِكرُ أريوس وعقيدةُ مجمع نِيقيَا

في النّصفِ الأوّل مِن القرن الرّابع الميلاديّ، بَرَغَت على السّطح قضيّتان مُثيرتان للجَدَل: القضيّة الأُولى أثارتها **نظريّةُ أريوس** فيما يتعلّق بأُلوهيّة الابن التّامّة، الّتي أنكرها ولم يعترف بها؛ ولكنَّ مجمع **نِيقيَا** (**325م**) قام بالتّأكيد عليها وإيضاحها. وأمَّا القضيّة الثّانية فقد أثارها **موقفُ أبولّيناريوس**، أسقف اللّاذِقيَّة، حيال نوعيّة ناسُوت–إنْسانيّة يسوع المسيح، الّتي قَدَّمَها أبولّيناريوس على أنّها غير مكتملة. ولقد رَفَضَ **مجمعُ القسطنطينيّة الأوّل** (**381م**) نظريّتي أريوس وأبولّيناريوس، فضلًا على إيضاحه لأُلوهيّة الرُّوح القُدس، الرّبّ المحْيي.

قد تسبّب وعظُ الكاهن **أريوس** (260م تقريبًا–366م)، في رعيّةِ "باوكاليس" بمدينة الإسكندريّة، ما بين الأعوام 318 و320م، في الجَدَل الرّئيسيّ الأوّل الّذي قاد بدوره إلى انعِقاد مجمع نِيقيَا بعد بضعةِ أعوام مِن ذلك التّاريخ. ففي محاولته لشرح العَلاقة القائمة بين الآب والابن، اعتقد أريوس بأنّه ليست ثَمَّة مساواةٌ بينهما، وإنّما هنالك دونيّة حاسمة مِن جِهة الابن. فوفق زعمه وادّعائه، مع كون الابن أوّلَ الخلائق وأعظمها، إلّا أنّه لا يشارك في الكينونة أو الماهيَّة الإلهيّة، الّتي هي غير مادّيّة وغير منقسمة. ومِن خلال استخدامه لبعض النّصوص البِيبْليّة (على سبيل المثال، **سِفر الحِكمَة** 8: 22–25، إذ إنّ الحِكمَة تُصرّح

[9] CLEMENTE ALESSANDRINO, *Pedagogo* I, 3, 3.
[10] Cfr. ORIGENE, *I principî* II, 6, 3.

بأنّ لها أصلًا)، اعتقد أريوس أنّه ينبغي القبول بأنّ الابن لا يمكنه أنْ يكون "غيرَ مولودٍ" مِثل الآب، مع أنّه إلهٌ تامٌّ، ووحيدُ الجنس، وغيرُ متغيّر. ومِن ثَمَّ، فالخلاصةُ الّتي نادى بها أريوس هي ما يلي: «الابنُ له بداية، بينما الله بدون بداية [...] وهو يصدر مِن العدم»[11]. وبالطّبع، فقد رأى الشّعبُ تعبيرات أريوس هذه بمثابة تعبيرات مُلتَبِسة؛ وأمَّا أسقف الإسكندريّة الأنبا إسكندر –بنوعٍ خاصّ– فقد وَجَدَها تعبيرات خطيرة، وأدانها لكونها خاطئةً، لاصقًا بأريوس هَرطقة **"السّابِليّة"** (نسبةً إلى الهَرطُوقيّ سابِليوس)، أي ذاك التّصوُّر المتعلّق **بالشَّكلانيّة المُونارْخِيانيّة** (الّتي أشرنا إليها مِن قَبل).

لقد تَبِعَ هذا كلَّه جَدَلٌ حادّ، ولا سيّما فيما يتعلّق بضرورة التّمييز بين فكرة **"الوِلادَة"** وفكرة **"الخلق"**، أي بين ما يحدث في الأزليّة وما يحدث في الزّمن. فبالنّسبة لأريوس، القول بأنّ الابنَ مولودٌ يعني أنّه مخلوقٌ، ومصنوعٌ، وله بداية؛ بينما الله ليس له بدايةٌ، فهو أزليّ، وهذا كلّه لا يمكن أنْ يُنسَب للابن، الّذي مصدره هو الآب، ومنه يأخذ بدايته. ويمكننا أنْ نتساءل هنا: كيف يكون الابنُ، إذًا، **"إلهًا تامًّا"؟**، مُلاحِظين بوضوحٍ أنّ ألوهيّةَ الابن في خطرٍ شديد، فهي الألوهيّة الّتي اعترفت بها الكنيسةُ على مدار ما لا يقلّ عن ثلاثةِ قرون مضت. فرُبّما قد مال أريوس إلى رؤية ولادة الابن مِن لَدُن الآب (في الأزليّة الإلهيّة) وَفقًا للمُفارقة البشريّة (الزّمنيّة)، أي أنّ الرّجل قبل أنْ يكون لديه ابنٌ، ليس أبًا بَعدُ، وإنّما فقط عندما يلد–يخلق ابنًا حينئذٍ يصبح أبًا، لأنّ لديه ابنًا. ومع ذلك، هنالك أمرٌ آخر: انطلاقًا مِن خلفيّة **الفِكر الازدواجيّ–الثُّنائيّ التَّبعيّ**[12]، الّذي اعتنقه أريوس، تظهر الفكرةُ الأفلاطونيّة الخاصّة بـ**"إلهٍ ثانٍ"**، أي **الدّيميورغُس** (صانع الكون ومنظّمه)، الّذي ينظّم الخَواء والفوضى في الكون، وهو بدوره ليس إلهيًّا ولا بشريًّا، وإنّما أمرٌ ما في الوَسْط. ومِن ثَمَّ، تصبح الإشكاليّة جذريّة: إمَّا الكِتابُ المقدَّس مُحِقٌّ، فهو يُؤكّد على أنّه «في البَدءِ كانَ الكَلِمَة» (يوحنا 1: 1)، كما صَرَّحَ مرارًا وتكرارًا أسقُفُ الإسكندريّة الأنبا إسكندر؛ وإمَّا أريوس مُحِقٌّ، فهو يعتقد بأنّ «الله ليس أبًا منذ الأزل»، وأنّه «ثَمَّة وقتٌ ما لم يكن فيه الابن».

بعد إدانة نظريّة أريوس سواء مِن قِبل سينودُس الإسكندريّة (320م) أو مِن قِبل سينودُس أنطاكيا (325/324م)، حيث كُتِب وحُرِّر "اعتراف إيمان" ضدّ أريوس، تدخّل الإمبراطور قسطنطين الكبير، لأنّه كان مهمومًا ومنشغلًا بإحلال السّلام بين المدن الّتي وَقَعَت في حالة اضطرابٍ وفوضى مِن جرّاء المعتقدات المتباينة المتعلّقة بقضيّة هُويّةِ يسوع المسيح ابن الله؛ وهي قضيّةٌ ليست بالأمر اليسير. **فعُقِد** أوَّلُ مجمعٍ مسكونيّ في **مدينة نِيقيَا**، وهي مركزٌ صغير في آسيا الصُّغرى، وقريبٌ مِن مدينة القسطنطينيّة، ما بين شهري مايو ويوليو لعام 325م. وشارك في هذا المجمع نحو 250 أو 300 أو 318 أسقُفًا يمثّلون الشّرق، وآسيا الصُّغرى، وسوريا، وفلسطين، ومِصْر. ولم يحضر البابا سِلفِسترُس الأوّل (314–335م) هذا المجمع، ولكنّه أرسل مندوبَيْن عنه، بالإضافة إلى أربعة أساقفة فقط مِن الغرب. وبعد المواجهة الحاسمة بين آباء المجمع، قد توصّل الجميعُ إلى **"اعتراف الإيمان"**، وأُلحِق به **"قانونٌ"** يوضّح ويحدّد ما يستبعده الإيمانُ المعترَف به، وبالتّالي، استبعاد الحلّ الّذي قَدَّمَه أريوس.

لقد صِيَغ **"قانون إيمان نِيقيَا"** على نحوٍ **ثالوثيّ**، أي على غرار اعترافات الإيمان الخاصّة بالمعموديّة، الّتي استخدمتها الجماعاتُ المسيحيّة آنَذَاكَ، أي كلّ ما يتعلّق بإيماننا بالآب، وبابنه يسوع المسيح، وبالرُّوح القُدس. وقد خُصِّص المجال في المقام

[11] ARIO, *Lettera a Eusebio di Nicomedia* 4-5.

[12] هَرطقةُ **"التَّبعيّة"** (*subordinazionismo*) نادت بأنَّ الابن، مِن حيث ترتيبه، يُعَدُّ في مرتبةٍ أقلّ مِن الله (الآب).

الأوّل للتّعمُّق في القِسم الخريسْتولوجيّ، فهو القِسم الّذي وُضِع بعد الوصف الموجز للآب الكلّي القدرة والخالق، وقبل التّلميح البسيط إلى الرُّوح القُدس:

«نؤمن بإله واحد آب قدير خالق كل ما يرى وما لا يُرى. وبربّ واحد يسوع المسيح ابن الله المولود الوحيد من الآب، أي من جوهر الآب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، الّذي به كان كلُّ شيء، ما في السماء، وما على الأرض، الّذي لأجلنا نحن البشر، ولأجل خلاصنا، نزل وتجسّد وتأنّس وتألّم، وقام في اليوم الثالث [و] صعد إلى السّماوات، وسيأتي ليدين الأحياء والأموات، وبالروح القدس»[13].

ويتبلور **العمودُ الفقريّ أو المحورُ الأساسيّ** لقانون الإيمان النّيقاويّ في التّرابط القائم بين صدور الابن مِن الآب، في الأزليّة، وبين تجسُّده مِن أجل خلاصنا. فهما النُّقطتان الجوهريّتان اللّتان نقلتهما لنا الأناجيلُ، وهما هنا مرتبطتان معًا: فالّذي يُدعَى يسوع المسيح، والّذي تألّم وقام مِن بين الأموات، قد جاء مِن لَدُن الآب، وتجسَّد وتأنَّس، لأنّه كان معه في البَدْء، وشارك في الخلق أيضًا. ومِن ثَمَّ، ليس له بدايةٌ (مِثله مِثل الله الّذي ليس له بداية)، ولذا فهو الله–الابن، وهو متميّزٌ عن الآب، مِن حيث كونه مولودًا منه، ومع ذلك، فهو مشاركٌ في **"الجوهر الإلهيّ عَيْنه"** أو **"الطّبيعة الإلهيّة عَيْنها"**. وبكلماتٍ قليلة وأكثر تركيزًا، قِيل إنّ كونه مولودًا لا يُقصَد به أنّ له بدايةٌ في الزّمن، وإنّما يُقصَد به صدوره مِن الآب مثل نورٍ مِن نورٍ، ومثل إلهٍ حقٍّ مِن إلهٍ حقّ. فالمشاركة في "طبيعة الله ذاتها" تعني، بالنّسبة للابن، كونه قائمًا منذ الأزل على علاقة الوِلادَة. وبهذا المعنَى، لم يكن ثَمَّة وقتٌ على الإطلاق، وبالتّحديد لأنّنا نتحدّث عن الأزليّة الإلهيّة، كان اللهُ فيه وحيدًا، فهو منذ الأزل أبٌ، لأنّ لديه منذ الأزل ابنًا (بالرُّوح القُدس وفيه).

لقد جازف آباءُ المجمع، عبر إيجاد وصياغة مصطلحٍ جديد، وهو **"هوموووزيوس"** ("مُساوٍ في الجوهر")، في شَرْحِ ما تَمَّ المجاهرة به والإيمان به انطلاقًا مِن العهد الجديد، أي أنّ **للرّبّ يسوع هُويّة إلهيّة داخل إطار التّمايز البَنويّ**؛ وهذا المصطلح بدوره غير بِيبْليّ، بل فلسفيّ. إنَّ الأمر الجديد حقًّا في هذه اللّفظة، في سياقها الهلّينستيّ الخاصّ بها، يكمن في القبول بأنّ **التّماثل والتّمايز، في الله، يُعَدَّان أمرَيْن أصيلَيْن**. فثَمَّة تَوافُقٌ بين التّماثل في الجوهر، والتّمايز النّاجم عن الوِلادَة، أي أنّ الآب يظلّ هو المبدأ، مِن حيث علاقة الأصل، وينتمي الابنُ إلى مستوى كينونة الآب ذاتها.

ما هي تبعيّاتُ هذا بالنّسبة لإيمان الكنيسة؟ فهذا الإيمان كان مُهدَّدًا مِن قِبل الاختزال الأريوسيّ ليسوع المسيح، إذ إنّ هذا الاختزال جَعَلَ مِن الابن نصفَ إلهٍ ونصفَ إنسانٍ، وهذا بحُجّةِ محاولة التّوفيق بين الإيمان بالمسيح مِن جِهةٍ، والرّؤيّة الفلسفيّة اليونانيّة الصّارمة مِن جِهةٍ أُخرى. فهل يا تُرى أُلحِق أيُّ ضررٍ بالإنجيل وفُسِد وحُرِّف، مِن خلال تبنّي كلمةٍ غريبةٍ عن الإرث البِيبْليّ؟ أو بالأحرى عُبِّر عن **أصالة حَدَثِ المسيح ذاتها بواسطة تعبيرات أصيلة؟** في الواقع، عمليّةُ إضفاء الصّبغة الهلّينستيَّة على الألفاظ كانت توازيها في المقابل عمليّةٌ أساسيّةٌ متعلّقة بنزع الصّبغة الهلّينستيَّة عن مضمون الإيمان؛ ففي حقيقة الأمر، ما

[13] مجمعُ نِيقيَا، «قانون الإيمان»، في: دنتسنغر– هونرمان (إعداد)، الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، الجزء الأوّل، ترجمة يُوحَنّا مَنصُور وحنّا الفَاخُوري، (سلسلة "الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم"، 27)، منشورات المكتبة البُولسيّة، جونيه – لبنان، 2001، بندان 125–126، ص 44–45.

كان مِن الممكن على الإطلاق، بالنّسبة للفِكر اليونانيّ، الاعتقاد بـ"المساواة في الجوهر" لذواتٍ متعدّدةٍ داخل الكينونة الإلهيّة الواحدة. وقد كان هذا في حدِّ ذاته كافيًا للمحافظة على الإيمان الرّسوليّ، على الرّغم مِن عدم شَرْحِ كلّ شيء متعلّق بنتائج هذا التّصريح. وأمّا فيما يخصّ قيام مجمع نِيقيَا بعمليّة التّفْسير أو التّأويل الأُولى والجادّة المتعلّقة بهُويّة الابن الإلهيّة (وولِادَته الأزليّة، ومساواته للآب في الجوهر)، فهذا لا يعني بأيّ حالٍ من الأحوال أنّ المجمع قد اخترع ألوهيّة الرّبّ يسوع، أو أنّه قَصَدَ شَرْحَ كلّ شيء متعلّق بهذا الأمر. وبالتّحديد مِن خلال هذا الأسلوب في "الاعتراف" بالإيمان، و"الدّفاع" عنه أمام التّفْسيرات المنحرفة، يمكننا أنْ نستوعب التّأمُّل المتأنّي والحذر مِن قِبل الكنيسة الكُبرى، فهي قد عَقَّدَت العزم على السّماح بالسّير قدومًا، عبر خطواتٍ صغيرة، نحو تعقيدات السِّرّ، بدلًا مِن غَلْقِ الأبواب أمام التّفْسيرات الجديدة.

بعد مجمع نِيقيَا، وَقَعَ على عاتق آباء الكنيسة، كالقدّيس أثناسيوس (295–373م)، واجبُ التّعمُّق في الإيمان المعترَف به مِن قِبل المجمع، وهذا مِن خلال إيضاح الدّافع الخلاصيّ الكامن وراء التّجسُّد الإلهيّ. فبواسطة حَدَثِ جسد المسيح، يمكننا، في الواقع، أنْ ندرك الرّباط القائم بين الخضوع والمساواة في آنٍ واحدٍ، وهو الرّباط القائم بين الابن والآب. وبالتّحديد بفضل مُساواته في الجوهر الإلهيّ، يمكن للابن أنْ يخلِّصنا. ومِن ثَمَّ، فقد اتَّخذ اللّوغُس له جسدًا بشريًّا حقًّا، وبه قد تألّم ومات حقًّا هو ذاته؛ ومع ذلك، لا يعني هذا كلُّه أيَّ تحوُّلٍ في كونه الابن الأزليّ للآب[14]. لقد تأنَّس اللّوغُس حقًّا، بدون أنْ يتخلّى عن كونه الله. وفي نهاية المطاف، تعتمد نتيجةُ الخلاص النّهائيّة، على **"عمليّةِ التّبادل"** الّتي تَمَّت بين الله والإنسان في اللّوغُس المتجسِّد والمصلوب والقائِم. فقد تصرّفت الأُلوهيّةُ بواسطة جسدٍ حقيقيّ، وقد بات كلُّ ما هو متعلّقٌ بالوضع البشريّ أمرًا خاصًّا باللّوغُس؛ وانطلاقًا مِن هذا التّبادل قد نَتَجَ **تألُّه أو تأليه الإنسان وتحرُّره**. ففضلًا عن محوِ الخطيئة، قد أنعم الله أخيرًا على البشريّة بهِبة الخلود والحياة الأبديّة؛ وبفضل "إضفاء طابع اللّوغُس" على الجسد حقًّا وفعلًا، قد نضجت ثمارُ الخلاص للبشريّة جمعاء[15].

رابعًا: أبولّيناريوس اللّاذِقيّ وقضيّة نَفْسِ المسيح

بعد إعلان أُلوهيّة الرّبّ يسوع رسميًّا وفي جوٍّ احتفاليّ، وإنْ كان ذلك مِن خلال بعض المفردات أو التّعبيرات الجديدة والمثيرة للجَدَل، كانت الإشكاليّاتُ الخريسْتولوجيّةُ لا تزال في بدايتها فقط. فقد نشأت، بداخل إطار المصطلحات الهلّينستيَّة أيضًا، القضيّة المتعلّقة بمعرفة **أيّ نوعٍ مِن البشر كان يسوع المسيح**. في واقع الأمر، قد سعى أريوس إلى إيجاده حلًّا وسطيًّا وتوفيقيًّا، واضعًا الابن في منتصف الطّريق بين الله والخلائق؛ ولكنّ هذا الحلّ قد ضحّى بالواحد (أي الله) وبالآخرين (أي خلائقه). والآن، ألا يعني القولُ بأنّ يسوع المسيح هو الله القبولَ بأنّه ينبغي أنْ يكون إنسانًا مختلفًا عنّا؟ ففي الواقع، كيف يمكن أنْ يجتمعا معًا الملءُ الإلهيّ والملءُ البشريّ في الشّخص الواحد عَيْنه؟ وانطلاقًا مِن هذه الطّريقة في طَرْح التّساؤل، يتّضح

[14] Cfr. ATANASIO, *L'incarnazione del Verbo* II, 8.

[15] Cfr. ATANASIO, *Trattati contro gli Ariani* III, 33, 1:
«إنْ لم تكن أفعالُ أُلوهيّة اللّوغُس قد تَمَّت بواسطة الجسد، لم يكن بمقدورِ الإنسان أنْ يتألّه؛ وكذلك، إنْ لم يكن كلُّ ما هو خاصٌّ بالجسد قد نُسِب للوغُس، لم يكن بمقدور الإنسان أنْ يتحرّر منه بشكلٍ نهائيّ».

لنا مباشرةً أنّ الحديث متعلّقٌ بالتّوجُّه الّذي كان يميل إلى الأفكار المسبقة الخاصّة بـ"الأُلوهيّة" وبـ"البشريّة" المنتشرة والسّائدة حينئذٍ، وهي أنّ "الأُلوهيّة" و"البشريّة" بمثابة جَوهَرَيْن منفردَيْن على حِدَة؛ ومِن ثَمَّ، بُحِثَ عن نوعٍ مِن المزج أو الخلط بين "الأُلوهيّة" و"البشريّة" في "حالة" يسوع المسيح. ولم يفكّر العهدُ الجديد في هذه الإشكاليّات، ولكنّ التّفكير التِّيولوجيّ رَاحَ يسير بدوره في هذا الاتّجاه. إنَّ التّحدّي الحقيقيّ يكمن في الحفاظ على كلّ ما يقوله المعطَى البِيبْليّ بطريقةٍ ما، مِن خلال التّعبير عنه بطريقةٍ أُخرى، ولكن دون الوقوع في عمليّة التّجريد العقلانيّ الخالص، وهو ما يمكن أنْ يؤدّي بدوره إلى خطر نسيان أنّ شخص يسوع المسيح غيرُ قابلٍ للاختزال في تقسيم الجَوهَرَيْن وتفكيكهما (اللّذين يُطلَق عليهما الآن "طبيعتَيْن").

إنَّ فرضيّة أسقُف اللَّاذِقيَّة أبولّيناريوس (310م تقريبًا–390م)، انطلاقًا مِن نِيّته ورَغْبته في أنْ يكون أمينًا لمجمع نِيقيَا، قد مالت إلى النّقيض المعاكس، أي إلى اعتبار **ناسُوت–إنْسانيّة** الرّبّ **يسوع في حالةِ عدم اكتمال**، مُناديًا بأنّه مِن أجل الحفاظ على عدم تغيُّر اللّوغُس في تجسُّده، ينبغي القولُ بأنّ اللّوغُس ظلّ محفوظًا مِن أيّ نوعٍ مِن التّغييرات. ومِن ثَمَّ –بحَسب زعمه– لو امتلك المسيحُ **نَفْسًا بشريّة ("النُّوس")**، الّتي هي معقل الإرادة والاختيار الحرّ، لكان قد وَقَعَ تحت قيادةِ مبدإٍ متغيّرٍ وغير مستقرّ. والآن، إذ إنّه مِن المستحيل أنْ يجتمعا معًا في الشّخص الواحد عَيْنه مبدآن عاقلان مُريدان (أي المبدأ الإلهيّ والمبدأ البشريّ)، يجب، إذًا، استبعاد وجود النَّفْس البشريّة العاقلة المريدة في المسيح؛ فهذا كلّه يصبّ في صالح هَيْمَنة اللّوغُس الإلهيّ الّذي اتّحد به الجسدُ فقط. وبهذا المعنَى، بالنّسبة لأبولّيناريوس، لو تمتّع المسيحُ بالإرادة الحرّة وبالاختيار الحرّ، لكان بإمكانه أنْ يخطئ؛ ولكن، وعلى العكس مِن ذلك، وبالتّحديد مِن أجل خلاصنا، كان يجب عليه أنْ يكون حرًّا ممّا ينبغي أنْ يخلِّصنا منه (أي الخطيئة). ويمكننا ملاحظة أنْ تفكير أبولّيناريوس تفكيرٌ منطقيّ، ولكنّه قائمٌ على مقدّماتٍ فلسفيّة صارمة ومجرّدة: فهل تتزامن الإرادةُ الحرّة مع الخطيئة، وتتساوى بها؟ إنَّ هذه المقدّمات الفلسفيّة، فضلًا على استبعادها للإسهام الثّمين الّذي قَدَّمَه أوريجينُس فيما يتعلّق بنَفْس المسيح، لا تأخذ على مَحْمَلِ الجِدّ النّصوص البِيبْليّة أيضًا (أي تجارب الرّبّ يسوع، وحُزْن "نَفْسه" حتّى الموت... إلخ)، ولا تضعها في الحُسبان.

ما هي النّتيجةُ الخطيرة لهذه الفرضيّة الّتي سَعَت للدّفاع عن أولويّة الطّاقة الإلهيّة على حساب اختزال ناسُوت–إنْسانيّة المسيح الكاملة والتّامّة؟ إنَّ الخلاصةَ الّتي تَوَصّل إليها أبولّيناريوس واضحةٌ وضوح الشّمس: إنَّ طبيعتي ابن الله المتجسِّد ليستا اثنتَيْن، وإنّما طبيعةٌ واحدةٌ فقط، أي الطّبيعة الإلهيّة. فقد صَرَّحَ بما يلي: «ليس لابن الله الوحيد طبيعتان، واحدةٌ نتعبّد لها والأُخرى لا نتعبّد لها، وإنّما **طبيعةٌ واحدةٌ لله اللّوغُس المتجسِّد**»[16]. وعلى هذا النّحو، قد ظَهَرَت أوّلُ أنماط **"المونوفيزيا"** (أي القول بطبيعةٍ واحدةٍ للمسيح)، وهو التّعليم الّذي سيَستلهِم محتواه مِن هذه العبارة بالتّحديد. فسوف تُستعمَل هذه العبارة، ليس مِن قِبل مؤلِّفين مِثل أوطيخا الهَرطُوقيّ فحسب، وإنّما أيضًا مِن قِبل الأنبا كيرلس الإسكندريّ، إذ سينسبونها –عن طريقِ الخطأ– إلى القدّيس أثناسيوس (كما كان يحدث عادةً لبعض الكِتابات الهَرطُوقيّة الّتي تُدحَض، ولكن تُنشَر فيما بعد تحت اسمٍ آخر).

[16] APOLLINARE, *A Gioviano* 1.

لقد حَدَثت ردّاتُ فعلٍ واسعةٌ ضدّ نظريّة أبولّيناريوس الملتَبِسة مِن قِبل سينودُسات عديدة، ما بين الأعوام 377 و382م، ولا سيّما مِن قِبل **البابا دماسيوس** الّذي كَتَبَ، في الرّسالة إلى أسقُف أنطاكيا بَولينوس، ما يلي: «يجب الاعتراف بأنَّ الحِكمَة ذاتها، اللّوغُس ابن الله، قد اتَّخذ جسدًا بشريًّا، ونَفْسًا، ومَلَكةَ الإدراك الحسيّ والعقليّ، أي آدم بجملته؛ وبتعبيرٍ أدّق، قد اتَّخذ إنساننا العتيق كلّه، ما عدا الخطيئة وحدها»[17]. وقد اتّفق آباءُ السّينودُسات، ومِن بينهم القدّيس أَمبروسيُس الميلانيّ وأساقفة لاتين آخرون، على القبول بوجود النَّفْس البشريّة ("النُّوس") في الرّبّ يسوع. ولكنّ إسهام **آباء كبادوكية** بنوعٍ خاصّ هو الّذي قَدَّمَ الدّوافع الرّاسخة لهذا الأمر المؤَكَّد، أي وجود النَّفْس البشريّة العاقلة المريدة في يسوع المسيح. فقد أعاد باسيليوس القيصريّ (330م تقريبًا–379م)، وغريغوريوس النّازيانزيّ (330م تقريبًا–390م تقريبًا)، وغريغوريوس النّيصيّ (335–394م تقريبًا)، اعتماد وتفعيل –بإصرارٍ شديدٍ– **"مبدأ التّبادل"** الّذي سَبَقَ ونادى به القدّيس أثناسيوس مِن قَبل: «كلُّ ما لا يُؤخَذ [مِن قِبل اللّوغُس]، لا يُشفَى؛ والعكس صحيح، كلُّ ما اُتِّحد بالله، هذا يَخلُص»[18]. وبكلماتٍ أُخرى، يعتمد الخلاصُ الكامل للإنسان، الّذي سَقَطَ في الخطيئة، على الاكتمال والكمال فيما اتَّخذه اللّوغُس مِن طبيعتنا البشريّة. وقام غريغوريوس النّازيانزيّ بالتّأكيد على ما يقلب رَأْسًا على عَقِبٍ نظريّةَ أبولّيناريوس، الّتي نادت بأنّ المسيح، لكي ما يخلِّصنا، كان يجب عليه أنْ يكون خاليًا ممّا ينبغي أنْ يخلِّصنا منه، وبالتّالي، من النَّفْس العاقلة المريدة المسبِّبة للخطيئة؛ فقد أكّد غريغوريوس النّازيانزيّ على أنّ اللّوغُس المتجسِّد، مِن أجل أنْ يخلِّص الإنسانَ بأكمله، اتَّخذ كلَّ ما يخصّنا مِن حيث طبيعتنا البشريّة.

عبر إدانة **الهَرطقة الأَبولّيناريّة** مِن قِبل مجمع القسطنطينيّة الأوّل (381م)، قد اُستُبعِد أحدُ أنماط اختزال ناسُوت–إنْسانيّة المسيح؛ ولكنّ التّفكير الثّيولوجيّ حول معنى الطّبيعتَيْن، اللّتَيْن تشكّلان الشّخصَ الواحد الّذي هو يسوع المسيح، كان لا يزال بحاجةٍ إلى تعميقٍ أكثر. وبالتّحديد بفضل الآباء الكبادوكيّين، سَلَك الخطابُ الثّيولوجيّ، الممتدّ مِن الخريسْتولوجيا إلى ثيولوجيا الثّالوث، دربًا سيُؤخَذ فقط لاحقًا. فبالإضافة إلى تصريحه أو مفهومه الخريسْتولوجيّ السّاطع ضدّ الهَرطقة الأَبولّيناريّة، ينبغي ملاحظة الإسهام المتميّز والواضح الّذي قَدَّمَه غريغوريوس النّازيانزيّ بشأن المعضلة الخاصّة بالتّمييز والوَحدة في مضمار ثيولوجيا الثّالوث أحديّ الجوهر. فهذا الإسهام كان له الفضلُ في إدخال المماثلة والمقابلة بين الخريسْتولوجيا (التّمييز بين الطّبيعتَيْن في وَحدة الأُقنوم–الشّخص) وبين عقيدة الثّالوث (التّمييز بين الأقانيم الثّلاثة في وَحدة الجوهر). وقد نالت هذه المماثلة أو المقابلة بدورها حَظًّا وفيرًا فيما بَعدُ. وبكلماتٍ أُخرى، ثَمَّة أقانيمُ ثلاثةٌ وطبيعةٌ واحدةٌ في الله؛ بينما في يسوع المسيح، ثَمَّة طبيعتان في شخصٍ واحد. وهذا كلُّه قد وَصَلَ إلينا اليوم بنوعٍ ما مِن الوضوح، ولكنّه لم يكن واضحًا هكذا للجميع في القرن الرّابع الميلاديّ، لأنّه لم تكن قد وُضِّحت بَعدُ الألفاظُ التّالية: "أُقنوم–شخص" و"طبيعة".

---

[17] DAMASO I, *Lettera* Per filium meum *al vescovo Paolino di Antiochia*, in H. DENZINGER – P. HÜNERMANN (edd.), *Enchiridion symbolorum definitionum et declarationum de rebus fidei et morum*, EDB, Bologna 1995, 148.

راجع أيضًا دماسيوس الأوّل، «رسالة "Per filium meum" إلى بَولينوس أسقف إنطاكية»، في: دنتسنغر – هونرمان (إعداد)، الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، الجزء الأوّل، بند 148، ص 56.

[18] GREGORIO DI NAZIANZO, *Prima lettera a Cledonio* 7.

بينما كان يدور النّقاشُ، في مُحيط التّيولوجيا الشّرقيّة، حول ما إذا كان ابنُ الله الأزليّ ويسوعُ المولود مِن العذراء مَريم هما بمثابة "واحدٍ وعَيْنه" ("ذات الابن الواحد")، وَفقًا لمدرسة الإسكندريّة، أمْ إنّهما بمثابة "واحدٍ وآخر"، وَفقًا لمدرسة أنطاكيا؟، كان **التّفكيرُ النّيولوجيّ الغربيّ**، الّذي استهلّه سابقًا ترتُليانُس ونوفاطيانُس، يسلك دروبًا متباينة، ولا سيّما مع أَمبروسيُس الميلانيّ (339–397م)، وأَوْغسطينُس الهيبّونيّ[19] (354–430م)، بالإضافة إلى هيلاريوس البُواتِياويّ (315–367م)، وهيرونيمُس أو جِيروم (347م تقريبًا–419 أو 420م)، وروفينُس الأَقيليّ († 410م)[20].

خامسًا: اعتبارات خريسْتولوجيّةٌ–ثالوثيّةٌ، مسكونيّةٌ، رعويّةٌ، عمليّةٌ، حول الإيمان النّيقاويّ–القسطنطينيّ باللّوغُس المتجسّد والمتأنّس

نودّ الآن تقديمَ بضعة اعتبارات موجزة أُخرى، مِن النّواحي الخريسْتولوجيّة–الثّالوثيّة، والمسكونيّة، والرّعويّة، والعمليّة، بشأن الإيمان النّيقاويّ–القسطنطينيّ باللّوغُس المتجسّد والمتأنّس. بدايةً، يجب علينا الاحتراس مِن التّصريح الشّائع والمتكرّر الّذي أصاغه **أدُلف فون هارناك**، منذ أكثر مِن قرنٍ مِن الزّمان، أي تصريحه القائل بأنَّ التّواصل/والقطيعة (أو الانتقال/والانقطاع) ما بين **الكِريغما (أو الكِرازة) والعقيدة** كان مِن فَرْط «عمل الرُّوح اليونانيّ في أرضيّة الإنجيل»[21]. فعندما يتبنّى أحدُهم –بشكلٍ جذريّ– منظورَ عدم إمكانيّة التّلاقي والتّقارب بين الإنجيل والثّقافة الهلّينستيّة، فسوف يعني هذا أنَّه ينبغي له التّسليم حتمًا باستحالةِ التّعبير عن الإيمان بالمسيح في أيّ سياقٍ ثقافيّ آخر، وهذا بحُجّة عدم تلويث الإنجيل، وعدم تحريفه.

لقد عانت الكنيسةُ الكُبرى في بحثها عن الطّريقة الأنسب للحفاظ على إيمان العهد الجديد، الّذي يتميّز في حدِّ ذاته بالتّعدُّديّة والتّناسق فيما يتعلّق بفَهْمه للمسيح؛ وقد قَبِلَت الكنيسةُ أيضًا التّحدّيات الّتي واجهت الإيمان مِن قِبل البيئة اليونانيّة. وبالطّبع، تعلّق الأمر بمسيرةٍ غَلَبَ عليها الطّابعُ **"الأُنْطولوجيّ"**، إذ إنَّه أُنتُقِل مِن سرد أعمال الرّبّ يسوع (كما في العهد الجديد) إلى التّفكير حول كينونته (مع آباء الكنيسة والمجامع المسكونيّة الأُولى). ولذا، فما نلاحظه في هذه القرون الأُولى هو درجةٌ مختلفة لهذه التّأكيدات والتّصريحات البِيبْليّة عَيْنها، وليس قفزةً نَوعيّة حقيقيّة، أو تحوُّلًا في التّوجُّه.

وعبر مسيرة هذه القرون الأُولى وصولًا إلى مجمعَي نِيقيَا والقسطنطينيّة الأوَّل، والمجامع الأُخرى أيضًا، قد وُضِّحت جيّدًا، وبشكلٍ تدريجيّ، المفاهيم والمحتويات لهذه الألفاظ كلّها: **فيزيس، أُوسِيًّا، أُقنوم، بروسوبُن، تبادل الخَصائص (أو المشاركة في الخَواصّ)**. وانطلاقًا مِن عقيدة الثّالوث المسيحيّ، وبفضلها، سيتحتّم على الجميع اكتشاف أنّ الوَحدة في يسوع المسيح لا ينبغي البحث عنها في **"ماذا"** يكون المسيح؟، وإنّما في **"مَن"** يكون المسيح؟، أي أنّ وَحدة المسيح لا تكمن في الطّبيعة الإلهيّة، أو في امتزاجٍ واختلاطٍ واقترانِ الطّبيعتَيْن الإلهيّة والبشريّة، وإنّما في **الأُقنوم–الشّخص** (**"الاتّحاد الأُقنوميّ"**). وفي هذا السّياق، في مضمار حديثه عن **سِرِّ التّجسُّد** ("كون ابنِ الله اتّخذ طبيعةً بشريّة لكي يحقّق فيها خلاصَنا")، يؤكّد كِتابُ "الكاتيشيزم"

---

[19] نسبةً إلى مدينة **"هيبو"**، الّتي كان القدّيس أَوْغسطينُس أسقُفها، منذ عام 392 ميلاديًّا حتّى نياحته.

[20] وهذا رُبَّما يكون موضوعَ مقالةٍ أُخرى بمعونةِ العِناية الإلهيّة.

[21] A. VON HARNACK, *Manuale di storia del dogma* I, Casa Editrice Cultura Moderna, Mendrisio 1912, 10.

الخاصّ بالكنيسة الكاثوليكيّة، ملخّصًا مضمون هَرطقات القرون الأُولى وكذلك "اعتراف الإيمان" باللّوغُس المتجسّد والمتأنّس، على ما يلي:

«إنّ الحادث الوحيد والفريد جدًّا لتجسّد ابن الله لا يعني أن يسوعَ المسيحَ إلهٌ في قسمٍ منه وإنسانٌ في قسمٍ آخر، ولا أنه نتيجةُ المزيج المبهم للعنصرَين الإلهيّ والإنسانيّ. لقد صار إنسانًا حقًّا وبقيَ إلهًا حقًّا. يسوعُ المسيحُ هو إلهٌ حقٌّ وإنسانٌ حقّ. هذه الحقيقة الإيمانيّة اضطُرَّت الكنيسة إلى أن تُدافع عنها وتوضّحها في خلال القرون الأولى في وجه هرطقات كانت تزوّرها. الهرطقات الأولى أنكرت ناسوت المسيح الحقيقيّ أكثرَ ممّا أنكرت لاهوته (الظّاهريّة الغنوصيّة). ومنذ العهد الرسُوليّ شدّدت العقيدةُ المسيحيّة على التجسُّد الحقيقيّ لابن الله، "الآتي بالجسد". ولكن منذ القرن الثالث اضطُرَّت الكنيسة إلى أن تناهض بولُس السُّمَيصاطيّ، وتُثبت، في مجمع عُقِد في أنطاكية، أن يسوعَ المسيحَ هو ابنُ الله بالطبيعة لا بالتبنّي. ومجمعُ نيقيةَ المسكونيُّ الأوّل، سنة 325، اعترف في قانون إيمانه أنّ ابن الله "مولودٌ لا مخلوق، وهو والآبُ جوهرٌ واحد" وأدان أريوس الذي ذهب إلى أنّ "ابنَ الله خرج من العدم"، وأنه من "جوهرٍ غير جوهرِ الآب".

[...] الكنيسة تعترف هكذا أن المسيح إلهٌ حقًّا وإنسانٌ حقًّا بغير انفصال. إنه حقًّا ابنُ الله الذي صار إنسانًا، أخًا لنا، وذلك من غير أن يتوقّف عن أن يكون إلهًا، ربَّنا [...] بما أنه في اتّحاد التجسُّد السرّيّ "الطّبيعةُ البشريّةُ مُتَّخذَة لا ممتصَّة"، فقد أُلْجِئَت الكنيسةُ عبرَ القرون إلى الاعتراف بملءِ حقيقةِ نَفْسِ المسيح البشريّة، مع أعمال عقلها وإرادتها، وبجسَده البشريّ. ولكن بإزاء ذلك كان عليها كلَّ مرَّة أن تُذكّر بأن طبيعة المسيح البشريّة هي خاصّةُ شخص ابنِ الله الإلهيّ الذي اتّخذها. فكلُّ ما هو عليه، وكلُّ ما يعمل فيها مرجعه "إلى أحد [أقانيم] الثّالوث". ومن ثَمَّ فابنُ الله يبثّ ناسوتَه الطريقةَ الخاصّة لوجوده الشخصيّ في الثّالوث. وهكذا فالمسيح يعبّر بشريًّا، في نفسه وفي جسده، عن السلوك الإلهيّ للثالوث [...] ذهب أبولّيناريوس اللاذقانيّ إلى أن الكلمة في المسيح قامَ مقامَ النفس أو الروح. وضدَّ هذا الضلال اعترفت الكنيسة بأن الابنَ الأزليّ اتّخذ أيضًا نَفْسًا بشريّة عاقلة»[22].

ومِن جِهةٍ أُخرى، يدَّعي بعضُهم أنّ **"الثّالوث المسيحيّ"** مأخوذٌ من "ثالوث المثرائيّة"، أو "الثّالوث المصريّ–الفرعونيّ"؛ ويُقال إنّه يحتوي أيضًا على أب وابن وأُمّ (أي أشخاص ثلاثة مُتَباينة ومنفصلة ومتّسمة بالطّبيعة البيولوجيّة والجنسيّة). فإنْ دلَّ هذا على شيء، فإنّما يدلّ على أنّهم ليسوا على دِرايةٍ كافيةٍ بالثّالوث المسيحيّ، إذ إنّ الأقانيم الثّلاثة (آب وابن ورُوح) هم جوهرُ الله الأحد–الواحد. وبكلماتٍ أُخرى، نحن في المسيحيّة نحاول محاكاةَ سِرّ "الثّالوث الأحديّ الجوهر" و"الوَحدة الإلهيّة الثّلاثيّة".

انطلاقًا مِن الأُسُس البِيبليّة، والعصر الآبائيّ، والمجامع المسكونيّة الأُولى و**"قانون الإيمان"** (ثمرة مجمعيّ نِيقيَا والقسطنطينيّة الأوّل)، نؤمن ونعترف نحن المسيحيّين بالله الأحد–الواحد–الثّالوث: آب وابن ورُوح قُدس. فبداخل ذات الله الأحد–الواحد، الآب هو الّذي وَلَد (ويَلِد) ولم يُولَد، والابن هو الّذي وُلِد (ويُولَد) ولم يَلِد، والرُّوح القُدس هو الّذي انبثَق (ويَنبثِق) من الآب

[22] التّعْليمُ المسِيحيّ للكَنيسة الكاثوليكيّة، المكتبة البُولسيّة، جونيه – لبنان، 1999، بنود 464–465 و469 و470 و471، ص 153–156.

والابن أو من الآب بالابن (أي اشتراك الابن في "انبثاق" أُقنوم الرُّوح القُدس –كما أوضح إسهامُ الفِكر التِّيولوجيّ الغربيّ، وليس فقط مجرّد اشتراك الابن في "إرسال" الرُّوح القُدس من لَدُن الآب). وأمَّا على مستوى "التّدبير الإلهيّ"، الابن يكشف عن أبيه، ويشترك في مَنْحِ رُوح قُدسهما؛ والرُّوح القُدس يعلن عن الابن، ويكشف عن الآب؛ والآب يكشف عن الابن، ويهب رُوح قُدسهما بواسطة الابن[23].

يصف الكِتابُ المقدَّس الله بأنّه **"محبّة"** (1يوحنا 4: 4–8، 16)، وأنّ كيانه عَيْنه "محبّة". ويعني هذا، كما أوضح البابا لاوُن الرَّابع عشر، البابا الـ 267 للكنيسة الكاثوليكيّة، في عظته بالقُدّاس الإلهيّ في "أحد الثّالوث الأقدس" (15 يونيو/حزيران 2025م): «الله، في ذاته، ليس ساكنًا ولا منغلقًا على نَفْسه، بل هو وَحدة وشركة، وعلاقة حيّة بين الآب والابن والرّوح القدس، علاقة منفتحة على البشريّة والعالم. يسمّي اللّاهوت هذه الحقيقة "pericoresi - περιχώρησις" أي "الرّقص وتشير الى العلاقة بين الأقانيم الإلهيّة الثّلاثة": هي "رقص" المحبّة المتبادلة».

أمَّا على **الصّعيد المسكونيّ**، فلَيْت الاحتفال بمرور 1700 عامًا على انعِقاد مجمع نِيقيَا المسكونيّ، يحثّنا نحن المسيحيّين –على تنوُّع عائلاتنا ومذاهبنا وطوائفنا– للسّعي جاهدين نحو وَحدتنا الكاملة والمنظورة في "المسيح الواحد"، اللّوغُس المتجسِّد والمتأنِّس. فتعبيرُ "[نحن] نؤمن"، الّذي بدأ به آباءُ مجمع نِيقيَا "قانون الإيمان"، يدفع الكنائس والجماعات المسيحيّة المعاصرة برُمّتها إلى أن تجد نَفْسها في شركةٍ ووَحدةٍ، متحدّين في التّمجيد والتّسبيح والشُّكر والعبادة للثّالوث القُدوس أحديّ الجوهر، ولأُقنومه الثّاني، ابن الله المخلّص، "مُساوٍ للآبِ في الجَوهَرِ". فكما تشير "اللّجنةُ التِّيولوجيّة العالميّة"، في وثيقتها "يَسُوع المسيح، ابن الله، المخلِّص"، لَيْت عامَ 2025 الّذي أوشك على الانتهاء، والأعوام المقبلة أيضًا، يكونوا فُرصةً «لجميع المسيحيّين أنْ يحتفلوا معًا بهذا الإيمان وبالمجمع [النِّيقاويّ] الّذي سَمَحَ بالتّعبير عنه. إنَّ المسكونيّة التِّيولوجيّة [أي الحوار اللّاهوتيّ] تُركّز اهتمامها وجهودها، بشكلٍ مشروعٍ، على نِقاط اختلافاتنا العالقة؛ ولكن مِن المؤكّد أيضًا أنّه من المثمر جدًّا، إنْ لم يكن أكثر إثمارًا، **أن نحتفل معًا بهذه الذّكرى**، للمُضي قُدمًا نحو استعادة الشّركة الكاملة بين جميع المسيحيّين، حتّى يؤمن العالم» (بند 44)[24].

وأخيرًا، على **الصّعيد الرّعويّ والعمليّ**، وبغضّ النّظر عن الشُّروحات والتَّفسيرات والمقاربات المتعدّدة حيال السِّرّ المركزيّ في الإيمان المسيحيّ وحياة المؤمنين، أي سِرّ "الثّالوث"، ينبغي لنا أن نتذكّر كلمات البابا فرنسيس الرّائعة والمعبّرة، بشأن الطّريقة المُثْلَى للإيمان بالثّالوث، والاحتفال به، والشّهادة له، إذ إنّه سِرٌّ يُعاش بالأفعال، لا بالكلام والكُتب فحسب؛ ويُعَدُّ "ثورةً في أسلوب حياتنا". فقد أكّد البابا على ما يلي:

«القضيّة ليست قضيّة لاهوتيّة، بل هي ثورة في أسلوب حياتنا. الله، الّذي فيه يحيا كلّ أُقنوم من أجل الآخر في علاقة مستمّرة، وفي رباط مستمّر، وليس لنَفْسه، يدفعنا إلى أن نعيش مع الآخرين ومن أجل الآخرين. يدفعنا إلى أن نكون منفتحين على الآخرين. اليوم يمكننا أن نسأل أنفسنا: هل تعكس حياتنا الله الّذي نؤمن به؟ أنا الّذي أعلن إيماني بالله الآب والابن

[23] كمُحاكاةٍ أو مُقاربةٍ وجيزةٍ لسِرِّ أُقنوم الرُّوح القُدس في وَثائِق الكَنسيّة الكاثوليكيّة، راجع: أشرف ناجح إبراهيم عبد الملاك (دكتور)، «"الأُقنومُ الإلهيُّ الثَّالثُ" في بَعْضِ الوَثائِقِ الكَنسيّة»، مجلّة "نجم المشرق"، العدد 107 (27) 2021، ص 206–211.

[24] https://www.vatican.va/roman_curia/congregations/cfaith/cti_documents/rc_cti_doc_20250403_1700-nicea_it.html

والرّوح القدس، هل أؤمن حقًّا أنّي، لكي أحيا، أنا بحاجة إلى الآخرين، وبحاجة إلى أن أهب نَفْسي إلى الآخرين، وبحاجة إلى أن أخدم الآخرين؟ هل أؤكّد ذلك بالكلام أم أؤكّد ذلك بحياتي؟ أيّها الإخوة والأخوات الأعزّاء، يجب أن يظهر الله الثّالوث والوحيد، بهذه الطريقة، بالأفعال أوّلًا قبل الأقوال. الله، مُكَوِّنُ الحياة، يجب أن نُظهِرَه بشهادة حياتنا، أكثر من إظهارنا له من خلال الكُتب. الله، كما كتب يوحنّا الإنجيليّ هو "مَحَبَّة" (1يوحنّا 4، 16)، أظهر نَفْسه من خلال المحبّة. لنفكّر في الأشخاص الصّالحين والكرماء والودعاء الذين التقينا بهم: لنتذكّر طريقة تفكيرهم وتصرّفهم، ويمكننا أن نرى فيهم ولو صورة ضئيلة لله الّذي هو محبّة. ماذا تعني المحبّة؟ إنّها لا تعني فقط أن نريد الخير وأن نفعل الخير، بل تعني قبل ذلك، في الأصل، أن نستقبل الآخرين، ونكون منفتحين على الآخرين، ونفسح مجالًا للآخرين، ونعطي مساحة للآخرين. هذه هي المحبة في الأصل»[25].

خَاتِمَةٌ

لقد قدمنا عرضًا موجزًا للتّطوُّر الّذي حَدَثَ للصُّور الخاصّة بالرّبّ يسوع المسيح، منذ العهد الجديد وصولًا إلى المسيحيّة المتهوّدة، وإلى الحقبة الهلّينستيَّة (حتّى النُّصف الأوّل مِن القرن الخامس الميلاديّ)، وقَدَّمنا أيضًا بضعةَ اعتبارات موجزة أُخرى، مِن النّواحي الخريستولوجيّة–الثّالوثيّة، والمسكونيّة، والرّعويّة، والعمليّة، بشأن الإيمان النّيقاويّ–القسطنطينيّ باللّوغُس المتجسّد والمتأنّس؛ فلا يتبقّى لنا إلّا أنْ نرجو –كحُجّاجِ الرَّجَاءِ المسيحيّ– أنّ "قانون الإيمان النّيقاويّ–القسطنطينيّ" يُغذّي حياتنا المسيحيّة والكنسيّة والمسكونيّة واليوميّة، ويوجّهها على نحوٍ متزايد.

وكذلك ينبغي لنا –نحن المؤمنين المعمَّدين– أن نكون حذرين أشدَّ الحذرِ من الوقوع في "**إلحادٍ فعليّ–عمليّ**"، كما أطلقَ عليه البابا لاوُن الرَّابع عشر، عبر اختزالنا ليَسُوع المسيح في مجرّد كونه إنسانًا فحسب، أو قائدًا كاريزميًّا، أو رجلًا خارقًا (سوبرمان). ففي العَالَمِ المعاصر، ومع غياب الإيمان بالله الّذي "يجلب معه مرارًا مآسي مِثْل فقدان معنى الحياة، ونسيان الرّحمة، والاعتداء على كرامة الإنسان في أقسى أشكاله، وأزمة العائلة، وجراح أخرى كثيرة يتألّم منها مجتمعنا بشدّة"، «نحن مدعوّون إلى أن نشهد للإيمان بالمسيح المخلّص وبفرح، كما علّمنا البابا فرنسيس مرّات عديدة. لذلك، بالنّسبة لنا أيضًا، من الضّروري أن نردّد: "أَنتَ المسيحُ ابنُ اللهِ الحَيّ" (متّى 16: 16). من الضّروري أن نقوم بذلك أوّلًا في علاقتنا الشّخصيّة معه، وفي التزامنا في مسيرة توبتنا اليوميّة. وأن نقوم بذلك أيضًا، بكوننا كنيسة، فنعيش معًا انتماءنا إلى الرّبّ يسوع وننقل البشرى السّارّة إلى الجميع (راجع المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، دستور عقائدي في الكنيسة، *نور الأمم*، 1)»[26].

بِيبْلِيوغْرافيا أَسَاسِيَّة

أشرف ناجح إبراهيم عبد الملاك (دكتور)، «"الأُقنومُ الإلهيُّ الثَّالثُ" في بَعْضِ الوَثائِقِ الكَنسيّة»، مجلّة "نجم المشرق"، العدد 107 (27) 2021، ص 206–211.

[25] https://www.vatican.va/content/francesco/ar/angelus/2022/documents/20220612-angelus.html
[26] https://www.vatican.va/content/leo-xiv/ar/homilies/2025/documents/20250509-messa-cardinali.html

التّعْليمُ المسِيحيّ للكَنيسة الكاثوليكيّة، المكتبة البُولسيّة، جونيه – لبنان، 1999.

دنتسنغر – هونرمان (إعداد)، الكنيسة الكاثوليكيّة في وثائقها، الجزء الأوّل، ترجمة يُوحَنّا مَنصُور وحنَّا الفَاخُوري، (سلسلة "الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم"، 27)، منشورات المكتبة البُولسيّة، جونيه – لبنان، 2001.

A. GRILLMEIER, *Gesù il Cristo nella fede della Chiesa*, voll. I/1; I/2, *Dall'età apostolica al concilio di Calcedonia (451)*, Paideia, Brescia 1982; vol. II/1: *La ricezione del concilio di Calcedonia (451-518)*, Paideia, Brescia 1996; vol. II/2: *La chiesa di Costantinopoli nel VI secolo*, Paideia, Brescia 1999; vol. II/4: *La chiesa di Alessandria, la Nubia e l'Etiopia dopo il 451*, Paideia, Brescia 2001.

A. ORBE, *Cristología gnóstica. Introducción a la soteriología de los siglos II y III*, 2 vols., La Editorial Católica, Madrid 1976.

B. SESBOÜÉ – J. WOLINSKI, *Storia dei Dogmi*, vol. I: *Il Dio della salvezza (I-VIII secolo)*, Piemme, Casale Monferrato 2000[2].

J. D. G. DUNN, *Gli albori del cristianesimo*, vol. II. *Gli inizi a Gerusalemme*, t. 1. *La prima fase*, Paideia, Brescia 2012; t. 2. *Paolo, apostolo dei gentili*, Paideia, Brescia 2012; t. 3. *La fine degli inizi*, Paideia, Brescia 2007.

L. W. HURTADO, *Signore Gesù Cristo. Venerazione di Gesù nel cristianesimo più antico*, 2 tomi., Paideia, Brescia 2006-2007.

M. GRONCHI, *Trattato su Gesù Cristo Figlio di Dio Salvatore*, Queriniana, Brescia 2008, 2012[2].

M. GRONCHI, *Gesù Cristo*, (Le parole della fede), Cittadella Editrice, Assisi 2012.

https://www.vatican.va/roman_curia/congregations/cfaith/cti_documents/rc_cti_doc_20250403_1700-nicea_it.html